"التضمين العَروضى ودوره فى البناء النَّصِّى للقصيدة؛ بائية الأعلم الهُذَلى نموذجًا"

الفاتح محمد محمد إبراهيم (*)

يناقش البحث "التضمين العَروضى" بوصفه ظاهرةً متجاوزةً حدود الجملة والتركيب النحوى؛ لتشتمل على تشكيل البناء النَّصِّى للقصيدة. والتضمين العَروضى يتخطَّى وقفة البيت الشعرى؛ فلا يتم التركيب النحوى حتى نجىء بالبيت التالى.

سببا اختيار موضوع البحث:

١- حاجة التضمين العروضى لدراسة تتجاوز حدود الجملة؛ لتُدرَس وفقًا للدراسات النصية الحديثة.

٢- رأى الباحث فى بائية الأعلم الهُذَلى نموذجًا صالحًا للتطبيق؛ لاشتمالها على صور مختلفة من التضمين، وتحقُّق كثير من السمات النصية بها.

هدفا البحث:

يهدف البحث إلى:

١- تقديم رؤية مركَّزة تتناول "التضمين العروضى" بنظرة مختلفة قائمة على الإفادة من الدراسات النصية الحديثة.

٢- دراسة التضمين دراسةً مختلفة، تبتعد عن التنميط السائد بكثير من الدراسات؛ فى محاولة لاكتشاف جمالياتِه الخاصة وقِيَمه الفنية، مع طرح الآراء المسبقة، والتأكيد على خصوصية كل نصٍّ شعرى بوصفه حالةً مستقلة فريدةً.

(*) المدرس المساعد بقسم اللغة العربية – كلية الآداب – جامعة سوهاج.

هذا البحث من رسالة الدكتوراه الخاصة بالباحث، وهي بعنوان: التضمين العروضي بين نحو الجملة ونحو النص؛ دراسة في شعر الصعاليك الجاهليين"، تحت إشراف: أ.د. فتوح أحمد خليل – كلية الآداب – جامعة سوهاج & أ.د. ياسر حسن رجب – كلية دار العلوم – جامعة القاهرة

أهمية البحث:

يقدِّم البحث رؤية مختلفة خاصة بالتضمين العَروضى، قد تسهم فى إعادة قراءة الأبيات المُضَمَّنة قراءةً جديدة. مع فتح الباب للدراسات النَّصِّيَّة للإفادة منها فى هذا المجال.

متن البحث:

مفهوم التضمين العَروضى: تعدَّدت التعريفات الخاصة بالتضمين العروضى بالمعاجم، وكتب العَروض والقوافى، وكتب البلاغة والنقد. ومن بين هذه التعريفات يختار الباحث تعريفَ الشنترينى؛ لأنه الأكثر مرونةً على حد اطلاع الباحث؛ فهو حسب قوله: "ألا يتم معنى البيت إلا بما بعده، سواء تم اللفظ أو لم يتم"[١].

فمفهوم التضمين –كما حدَّده الشنترينى- يصدُقُ على الأبيات التى يتم فيها اللفظ، ولا يتم المعنى، بل يكتمل بالبيت التالى. وكذلك يشتمل على كل مواضع التعلُّق؛ فلا يجعل التضمين خاصًّا بتعلُّق لفظة القافية دون ما قبلها. وذلك بخلاف كثير من العلماء الذين قيَّدوا التضمين بتعلُّق لفظ القافية.

النَّصُّ: النص حسب تعريف شميت: "كل تكوين لغوى منطوق من حدث اتصالى –فى إطار عملية اتصالية- محدد من جهة المضمون، ويؤدى وظيفة اتصالية يمكن إيضاحها؛ أى يحقق إمكانية قدرة إنجازية جلية"[٢]. وقد اكتفى غيره بتعريف النص على أنه: "تتابع مترابط من الجمل"[٣].

معايير نحو النَّصِّ: استقرَّ البحث فى الدراسات النصية على معايير سبعة يُحكَم بها على ملفوظ ما بأنه نصٌّ، وقد اختلفت أسماء هذه المعايير لدى الباحثين العرب باختلاف الترجمة، ونختار منها ترجمة واحدة، وتعريفًا واحدًا؛ كالآتى:

---

[١]- الكافى فى علم القوافى للشنترينى، ص٥٤. والشَّنترينى: محمد بن عبدالملك بن السراج، أبو بكر النحْوى، أحد أئمة العربية والمُبرِّزين فيها، قرأ عليه ابن بَرِّى. وصنَّف "تلقيح الألباب فى عوامل الإعراب"، وكتابًا فى العَروض، وغيرَ ذلك. ومات سنة ٥٥٠هـ. انظر: بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنُّحاة للسيوطى، ١/ ١٦٣. وتاريخ الأدب العربى، لبروكلمان، ٥/ ٣٥٤، ٣٥٥.

[٢]- نحو النص؛ اتجاه جديد في الدرس النحوى، لأحمد عفيفى، ص٢٥، ٢٦.

[٣]- انظر: المرجع نفسه، ص٢٢.

١- السبك Cohesion: الإجراءات المستعملة فى توفير الترابط بين عناصر ظاهر النص، كبناء العبارات والجمل واستعمال الضمائر وغيرها من الأشكال البديلة[١]. ويبدو من خلاله أن السبك يشتمل على ترابط العناصر النحوية؛ فهو ترابط على المستوى الشكلى.

٢- الحبك Coherence: يشتمل على الإجراءات المستعملة فى إثارة عناصر المعرفة من مفاهيم وعلاقات؛ منها علاقات منطقية كالسببية، ومنها معرفة كيفية تنظيم الحوادث، ومنها أيضًا محاولة توفير الاستمرارية فى الخبرة البشرية[٢]. ومن هذا المفهوم يتبين أن الحبك يشتمل على عناصر الترابط الدلالى. ويبدو أن الفصل التام بين العناصر الشكلية والدلالية فيه قدر من التعسُّف؛ فارتباط النحو بالمعنى ارتباط أكيد.

٣- القصد Intentionality: قصدية المُنتِج توفير التضام والتقارن فى النص، وأن يكون أداه لخُطَّة موجهة إلى هدف[٣]. ومنه يتبين أن النص جاء معبِّرًا عن هدف محدَّد مقصود من صاحبه؛ فلم يأتِ اعتباطًا.

٤- المقبولية Acceptability: تقبُّلية المستقبِل للنص باعتباره متضامًّا متقارنًا ذا نفع للمستقبِل، أو ذا صلةٍ ما به[٤]. وهذا العنصر خاصٌّ بالمتلقى؛ فهو الذى يحكم من خلاله على مدى تماسك النص.

٥- المقامية Situationality: تشتمل على العوامل التى تجعل النص ذا صلةٍ بموقف حالى، أو بموقف قابل للاسترجاع[٥]. وهذا المعيار يضع فى الاعتبار عنصر السياق، والموقف الذى قيل فيه النص.

---

[١]- مدخل إلى علم لغة النص، إلهام أبو غزالة وعلى خليل حمد، ص١١. وللمزيد، راجع: نحو آجرومية للنص الشعرى، سعد مصلوح، بحث منشور بمجلة فصول، ص١٥٤، م١٠، ع١، ٢. يوليو/ أغسطس ١٩٩١.

[٢]- مدخل إلى علم لغة النص، إلهام أبو غزالة وعلى خليل حمد، ص١١. وللمزيد، راجع: نحو آجرومية للنص الشعرى، سعد مصلوح، ص١٥٤.

٣- مدخل إلى علم لغة النص، إلهام أبو غزالة وعلى خليل حمد، ص١٢. ونضع فى الاعتبار أن التضام والتقارن هما الاصطلاحان المقابلان للسبك والحبك، فى المرجع المذكور.

[٤]- مدخل إلى علم لغة النص، إلهام أبو غزالة وعلى خليل حمد، ص١٢.

[٥]- مدخل إلى علم لغة النص، إلهام أبو غزالة وعلى خليل حمد، ص١٢.

٦- التناص Intertextuality: يتضمن العلاقة بين نصٍّ ما ونصوص أخرى ذات صلة، ثم التعرف إليها فى خبرة سابقة[١].

٧- الإعلامية Informativity: "اللا-يقين النسبى لوقائع النص بالمقارنة مع الوقائع الأخرى محتملة الحدوث"[٢].

ومبدئيًّا فتطبيق هذه المعايير جميعًا على "بائيَّة الأعلم" يشتمل على قدر من الصعوبة؛ ولا جَرَم أن المعايير الخاصة بالنص نفسه كالسبك والحبك أكثر ارتباطًا بموضوع البحث؛ فالتضمين العروضى قضية نحوية دلالية قبل أى شىء؛ لذا فليس بدعًا أن يكون التركيز عليها فى هذا البحث.

بائية الأعلم الهُذَلى[٣]:

١- لمَّا رأيتُ القومَ بالعلياءِ دونَ قِدَى المُناصِبْ[٤]
٢- وفَرِيتُ من فزَعٍ فلا أرمِى ولا ودَّعتُ صاحبْ[٥]
٣- يُغْرون صاحبَهمْ بنا جَهْدًا وأُغْرِى غيرَ كاذبْ
٤- أُغْرِى أبا وهْبٍ ليُعجِزَهم ومدُّوا بالحَلائبْ[٦]

---

[١]- مدخل إلى علم لغة النص، إلهام أبو غزالة وعلى خليل حمد، ص١٢.

[٢]- مدخل إلى علم لغة النص، إلهام أبو غزالة وعلى خليل حمد، ص١٢. وللمزيد حول المفاهيم الخاصة بمعايير النصية، راجع: النص والخطاب والإجراء، بوجراند، ترجمة: تمام حسان، ص١٠٣: ١٠٥. وكذا: علم لغة النص؛ المفاهيم والاتجاهات، سعيد حسن بحيرى، ص١٤٦.

[٣]- القصيدة ومناسبتها، بـ"شرح أشعار الهُذَليِّين"، للسُّكَّرى، ص٣١١: ٣١٧. وهى على "مجزوء الكامل". والأعلَم: حبيب بن عبد الله، وهو أخو صخر الغى، من شعراء هُذَيل وصعاليكها. للاستزادة، راجع: شرح أشعار الهُذَليِّين، للسُّكَّرى، ص٣١١، وأشعاره، ص٣١٢: ٣٢٩.

[٤]- القِدَى: القَدْر، والمُناصِب: الرامي، يرميك وترميه، والمَناصب "بفتح الميم": الأغراض والمرامى. انظر: شرح أشعار الهُذَليِّين، ص٣١٢.

[٥]- فَرِيتُ: بَطِرْتُ؛ فلم أقدر على الرمى، وتحيَّرتُ، وفَرِيتُ: عجبتُ من "الفَرِىُّ"، وهو العجب، وفَرَيْتُ "بالفتح": أسرعتُ. انظر: شرح أشعار الهُذَليِّين، ص٣١٢. ولعلَ البيت يحتمل هذه المعانى كلَّها.

[٦]- مدُّوا: صاحوا بالأمداد، والحلائب: جماعات جاء بعضهم فى إثر بعض، ويقال: "حلب بعضهم مع بعض"؛ أى استنصر بعضهم ببعض. والواحدة "حَلْبة". انظر: شرح أشعار الهُذَليِّين، ص٣١٢.

٥- مَدَّ المُجلْجِلِ ذى العَماءِ إذا يَراحُ من النَّجائبْ[١]
٦- يُغْرَى جَذِيمَةُ، والرِّداءُ كأنَّه بأقَبَّ قارِبْ[٢]
٧- خاظٍ كعِرقِ السِّدْرِ يسبِقُ غارةَ الخُوصِ النَّجائبْ[٣]
٨- عنَّتْ له سَفْعاءُ لُكَّتْ بالبَضيعِ لها الخبائبْ[٤]
٩- وخَشيتُ وقْعَ ضَريبةٍ قد جُرِّبَتْ كلَّ التجارِبْ
١٠- فأكونَ "فأصيرَ" صيدَهُمُ بها للذِّئبِ والضُّبْعِ السَّواغِبْ
١١- جَزَرًا وللطَّيْرِ المُربَّةِ والذِّئابِ وللثَّعالبْ[٥]
١٢- وتَجُرُّ مُجْريةٌ لها لحمى إلى أَجْرٍ حَواشِبْ[٦]
١٣- سُودٍ سحاليلٍ كأنَّ جُلودهنَّ ثيابُ راهبْ
١٤- آذانُهنَّ إذا احتضرْنَ فريسةً مثلُ المَذانِبْ[٧]
١٥- يَنْزِعْنَ جِلْدَ المرْءِ نزْعَ القَيْنِ أخْلاقَ المَذاهِبْ[٨]
١٦- حتَّى إذا انتصفَ النهارُ وقلتُ: يومٌ حقُّ ذائبْ
١٧- رفَّعْتُ عينَىَّ الحِجازَ إلى أُناسٍ بالمناقِبْ[٩]

---

[١]- المُجلْجِل: السحاب فيه رعدٌ وصواعق، والعَمَاء: السحاب الرقيق، إذا أصابته الجَنوب كثُر واجتمع، ويَرَاح: تصيبُه الريح. انظر: شرح أشعار الهُذليين، ص٣١٢، ٣١٣. ولعل الجنائب هنا "جمعُ الجَنوب"، راجع: اللسان، مادة "جنب"، ص٦٩٤، ٦٩٥.

[٢]- "جَذِيمةُ": رجل كان يطلبه، وهو منهزم، وأقَبُّ: حمار وحشٍ ضامرُ البطن، والقارب: الذى يسير؛ فيُصبِّح الماء؛ أى كأنَّ رداءه يعدو به حِمار وحش ؛ لشدَّة عدْوِه. انظر: شرح أشعار الهُذَلِيِّين، ص٣١٣.

[٣]- خاظٍ: ممتلئ لحمًا مُكْتنز، وهى صفة تعود على الحِمار، "كعِرق السِّدر": في حُمْرته، والخُوص: الغائرات العيون من الإبل والخيل، والنجائب: الكِرام. انظر: شرح أشعار الهُذَلِيِّين، ص٣١٣.

[٤]- عنَّتْ: عرضتْ، وسفْعاءُ: سوداء الوجه في حُمرة، ولُكَّتْ: قُذِفَتْ باللَّحم، والبَضيع: اللحم، والخبائب: طرائق اللحم، والواحدة "خبيبة"، انظر: شرح أشعار الهُذَليين، ص٣١٣.

[٥]- الضَّريبة: السيف. والضُّبْع: جمعُ "ضَبُع"، وسواغب: جِياعٌ. والجَزَر: كلُّ منحور، ومفرده: جَزَرَة، والمُربَّة: الطيرُ المقيمة على لحمٍ أبدًا. انظر: شرح أشعار الهُذَلِيِّين، ص٣١٤.

[٦]- المُجْرية: ضَبُعٌ ذاتُ جِراءٍ، وأَجْر: جمعُ "جِرْو"، وحواشب: منتفخات البطون والأجواف، قِصارٌ. انظر: شرح أشعار الهُذَلِيِّين، ص٣١٤.

[٧]- السَّحاليلُ: جمعُ "سِحْلال"، وهى عظيمة البطن. والمَذانب: المغارف، والواحدة "مِذنبةٌ"؛ لأن آذانهم قِصارٌ عِراض. انظر: شرح أشعار الهُذليين، ص٣١٤، ٣١٥.

[٨]- القَيْن: الحدَّاد، والمذاهب، جمع "مُذهَب"، وهى أخِلَّة السيوف. انظر: شرح أشعار الهُذَلِيِّين، ص٣١٥.

[٩]- ذائب: شديد الحَرِّ. والمناقب: الطرق فى الغِلَظِ وبين الجبل؛ فيقول أنه بلغ هذه المواضع. انظر: شرح أشعار الهُذليين، ص٣١٥.

١٨- وذكرتُ أهلى بالعراءِ وحاجةَ الشُّعْثِ التَّوالِبْ
١٩- المُصْرِمين من التِّلادِ اللامحين إلى الأقاربْ[١]
٢٠- وبجانبَىْ "نَعْمانَ" قلتُ: ألنْ تُبلِّغَنى مآربْ؟[٢]
٢١- دَلَجِى إذا ما الليل جَنَّ على المُقَرَّنَةِ الحَبَاحِبْ[٣]
٢٢- والحِنطِئُ الحِنْطِىُّ يُمْتَجُ بالعَظيمةِ والرَّغائبْ[٤]
٢٣- ما شِئْتَ من رجُلٍ إذا ما اكْتَظَّ مِنْ مَحْضٍ ورائبْ[٥]
٢٤- حتَّى إذا فقَدَ الصَّبوحَ يقولُ: عيْشٌ ذو عقاربْ[٦]

قد تكون هذه القصيدة من أكثر قصائد الصعاليك استيفاءً لمعايير الترابط والنَّصِّية، مع حضور للتضمين العروضى بصورٍ مختلفة. وتحليل ذلك كالآتى:

- تبدأ القصيدة بأداة الشرط "لمَّا"، ولا نجد جواب الشرط معيَّنًا بالقصيدة، بل محذوف دلَّ عليه الحال... وربما يكون فى قوله "أغرى أبا وهبٍ"، بالبيت الرابع؛ وإن كان كذلك؛ فبنية التضمين الشرطية تشتمل الأبيات الأربعة الأولى،

---

[١]- العَراء: الصحراء لا نبت فيها، والشُّعْثُ: ولدُه، والتَّوالِب: الجِحَاشُ؛ يريد أنهم مُلْقَوْن بالعراء، بالعراء، ليس دونهم حجابٌ، شبَّههم في صِغرهم بجِحاش الحمير. المُصْرِم: المُقلُّ الذى لا مال له، والتِّلاد: المال القديم الموروث عن الأجداد، ويقصد بـ"اللامحين إلى الأقارب": ينظرون إلى من يأتيهم من أقاربهم بشىء يأكلونه. انظر: شرح أشعار الهُذليين، ص٣١٥، ٣١٦.

[٢]- نَعْمان: من بلاد هُذَيْل، ومآرب: حوائج، مفردها: مأرُبَةٌ. ويُروَى: "قَلْتٌ لن يُبَلِّغَنى"؛ أى: مستنقع ماء. انظر: شرح أشعار الهُذليين، ص٣١٦. و"نَعْمان" حسبما ذكر البكرى: وادى عَرَفَةَ دونها إلى مِنى. وممَّا ذكر ياقوت؛ ولعله الأقرب لمراد الشاعر: "وقيل: وادٍ لهُذَيل على ليلتين من عرفات، وقال الأصمعى: نَعمانُ: وادٍ يسكنه بنو عمرو بن الحارث بن تميم بن سعد بن هُذَيْل..." ا.هـ. انظر: معجم ما استعجم، ٤/ ١٣١٦. ومعجم البلدان، ٥/ ٢٩٣.

[٣]- الدَّلَج: سير الليل من أوله، والمُقرَّنة: جبالٌ صِغار، والحباحب: الصِّغار. ويُروَى: "المُقرَّبة"، وهى الإبل المُكرَّمة، والحَباحِب: السريعة الخفيفة، وكلُّ خفيفٍ "حَبْحابٌ". انظر: شرح أشعار الهُذليين، ص٣١٦.

[٤]- الحِنْطِئ: القصير، والحِنْطِىُّ: الذى يأكل الحنطةَ، ويسمن عليها. ويُمْتَجُ: يُخْلَط أو يُطْعَم، والرغائب: السَّعة فى العيش من كل ضَرب أراد، والواحدة "رَغيبة". انظر: شرح أشعار الهُذليين، ص٣١٦، ٣١٧.

[٥]- اكتظَّ: امتلأ، والرائب: لبنٌ قد أُخرِج زُبْدُه. انظر: شرح أشعار الهذليين، ص٣١٧. والمَحْض: والمَحْض: اللبن الخالص بلا رغوة، واللبن الخالص لم يخالطه ماء. انظر: لسان العرب، مادة "محض"، ص٤١٤٥.

[٦]- فى هذا يمدح نفسه، بأنَّه مشمِّرٌ فى الأمور صبورٌ عليها؛ أى لمَّا فقد الصَّبوح، لم يرض معيشتَه، بل قال: عيشٌ ذو عقارب؛ أى ذو شرٍّ وخشونة. انظر: شرح أشعار الهُذَليين، ص٣١٧.

أو يظلُّ معنى الشرطية مطَّرِدًا مستمرًّا بالقصيدة ممتدًّا حتى آخرها، وهو ما يرجِّحه الباحث؛ لأن "أغرى أبا وهْبٍ..." متعلِّقة بما ذكره بالبيت الثالث.

- ارتبط البيت الثانى بالأول بالواو.

- جملة "يُغْرون صاحبَهم" بالثالث فى محلِّ نصب "حال"؛ إذ تصف حال القوم المذكورين بالبيت الأول؛ فهو تضمين بتعلُّق اللاحق.

- أسهم التكرار فى ربط البيتين الثالث والرابع؛ فقوله: "وأغرى غيرَ كاذب" يفتقر إلى المفعول، وهو المذكور بالبيت الرابع، وقد جاءت الجملة "أغرى أبا وهبٍ"؛ فأبو وهبٍ هو من يغريه الشاعر، ولعلها كنية صاحبه.

- ارتبط البيت الخامس بالرابع؛ حيث ابتدأ الخامسَ بالمفعول المُطلَق المبيِّن للنوَّع؛ وهو متعلِّق بالفعل "ومَدُّوا" المذكور بالرابع، وقد أسهم فى بيان حالتهم؛ فهم فى مدِّهم يُشبِهون السحاب المتتابع ذا الرعد والصواعق. وفيه مبالغة فى تصوير هؤلاء القوم وإظهار رهبتهم.

- البيت السادس مرتبط دلاليًّا بالثالث، والفرق أن البناء قد تبدَّل من بناءٍ للمعلوم، وفاعل "الإغراء" هو: القوم، إلى بناء للمجهول، ومن وقع عليه الإغراء هو "جَذِيمة"، وقد استحال "صاحبُهم" المُنكَّر إلى "جَذِيمةَ" المُعرَّف.

- كلمة "خاظٍ" بالبيت السابع صفةٌ لما قبلها، ولعله يصف بها "الأقَبَّ"، وهو حمار الوحش، وتنويع الصفات يزيد المعنى قربًا؛ فالشاعر لا يكتفى بذكر سرعة عدْوه "أو لعلَّه يقصد عدوَ خصمَه جَذيمة"؛ ولا يكتفى بتشبيهه بحمار الوحش، بل يبالغ فى وصف حمار الوحش بما هو أهلٌ لأن يكون أشدَّ سرعةً...

ويبدو للباحث أن الشاعر قد استعمل صفتين يبدو عليهما التناقض الظاهرى؛ فحمار الوحش بالبيت الأول "أقبُّ"، وفى البيت التالى "خاظٍ"، ولكن لا تناقض بينهما، بل فى الأمر توضيح لخطأ قد يطرأ على الذِّهن؛ فوصف الحمار بالأقب، وهو الضامر البطن قد يعطى معنى النحول والهُزال، ولكن الزيادة فى وصفه بأنه "خاظٍ"؛ أى مكتنزٌ ممتلئ لحمًا؛ أفادت أن ضمور بطنه لا ينفى كونَه ممتلئًا لحمًا ببقية جسده؛ ويكون بذلك قد جمع بين فضيلتين، تجعلانه فى منزلةٍ عالية من السرعة. والمبالغة فى وصف المشبَّه به –فى الحقيقة- مبالغة فى وصف المُشبَّه. ومن هنا تتبيَّن منزلة التضمين، وقيمته فى ربط الأبيات معنويًا متجاوزين حدود البيت لأفق النص.

- البيت الثامن ارتبط بالسابع بإحالة الضمير فى "له"، وهو أبلغ فى وصف المعنى؛ فالسرعة الشديدة، جاءت مرتبطةً بوجود الدافع المُحفِّز المذكور فى هذا البيت.

- البيت التاسع مرتبط بالثامن؛ لوجود العطف، وقد ارتبط معنويًّا؛ إذ إنه نتيجة لما سبق.

- ارتبط البيت العاشر بالتاسع؛ لابتدائه بالفعل المضارع المسبوق بفاء السَّببية؛ فالبيت العاشر نتيجة كانت ستلزم عن سابقه؛ والمعنى أنه لو لم يصنع ما صنع، ولو استسلم لهم؛ لصار وليمةً للذئاب والضباع.

- ارتبط الحادى عشر بسابقه؛ لابتدائه بكلمة "جَزَرًا"، وقد تكون حالًا أو بدلًا.

- ارتبط الثانى عشر بسابقه؛ إذ بدأ بالعطف، وأداته الواو. وأسهم العطف فى إكمال الصورة المخيفة له بعد موته؛ حين يُجَرُّ إلى جِراءٍ صغيرة تتقاسم لحمَه.

- ارتبط الثالث عشر بسابقه؛ لابتدائه بالصفة بقوله" سودٍ سحاليل..."، وموصوفها بالبيت السابق بكلمة "أَجْرٍ"؛ وكأنَّه يشاهد هذا المصير عَيانًا؛ فيصفه، ويصوِّره كما يراه.

- وتزداد الصورة وضوحًا بالبيت الرابع عشر؛ إذ يذكر صفة آذانهنَّ، وقد ارتبط البيت بما سبقه، إذ الضمير المتصل فى "آذانهنَّ" يعود على "أَجْرٍ" المذكورة بالثانى عشر.

- الجملة "ينزعن..." بالخامس عشر فى محل جرٍّ صفة، تعود على "أَجْرٍ" كذلك.

- ارتبط السادس عشر بما قبله بـ"حتَّى"، وهى تعبِّر عن نهاية ما سبق؛ فهو ظلَّ يجاهد ويعدو حتى انتصاف النهار. وبهذا البيت شرط بقوله: "إذا انتصف النهار"، وجوابه بالبيت التالى؛ فهو مُضمَّن.

- السابع عشر ابتدأ بالجواب: "رفَّعْتُ عينَىَّ".

- ارتبط الثامن عشر بسابقه بواو العطف؛ ويبدو أنه –هنا- يفيد التعقيب[1]؛ فحين رفع عينه تذكَّر أهلَه وحاجة الصغار منهم.

[1]- العطف بالواو يفيد إشراك الثانى فيما دخل به الأول، وليس بالضرورة أن يفيد التعقيب. انظر: الأصول، لابن السَّرَّاج، ٢/ ٥٥.

- ارتبط التاسع عشر بما قبله ارتباط الصفة بالموصوف؛ فكلمة "المُصْرِمين..." صفة لـ"الشُّعث" المذكورة بسابقه. وفى الوصف تأكيد وبيان لحالة البؤس والشقاء التى هم عليها.

- ارتبط العشرون بسابقه بالعطف، وهو يعبِّر عن حسرة الصعلوك؛ إذ يسأل موضع "نَعْمان" أن يبلِّغه ما يقتات به، وما قد يُسعِف هؤلاء الصغار البائسين.

- يبدو البيت الحادى والعشرون أكثر الأبيات انقطاعًا عن سابقيها؛ فهو ينتقل ليذكر سَيْرَه بالليل على الإبل السريعة الخفيفة، أو الجبال الصِّغار، ولعل الأرجح أنها "الجبال الصغار"؛ إذ هى الأقرب لشخصية الشاعر؛ فهو عدَّاء يفخر بعَدْوه على قدمه أكثرَ من ركوبه الدواب، بخلاف عامة الجاهليِّين.

- فى الثانى والعشرين بقوله: و"الحِنطئ الحِنطئُ" لعلَّه يصف نفسه. وإن كان كذلك؛ فهو يستطرد فى وصف ذاته وفخره بها.

- فى الثالث والعشرين استطراد فى وصف ذاته، والفخر بعدم رضاه بما دون رغد العيش.

- ارتبط البيت الأخير بسابقه لبدئه بـ"حتَّى". وهو تأكيد لما سبق؛ فهو لا يرضى بحياة الفقر، بل يثور عليها إذا فقد ما يقوته من شراب الصباح.

ويبدو للباحث أن الأبيات الأربعة الأخيرة لم تكن مع سابقاتها على درجة الارتباط الموجودة بالقصيدة؛ فتذكُّره أهله والأبناء الصغار ووصف بؤسهم قد يتعارض مع فخره بالغنى وعدم قناعته بما دونه. ولعلَّه أراد بذلك استدراك لما قد يعنُّ من فهم خاطئ؛ إذ هو مع حياة البؤس التى يعيشها أهله حاليًا؛ فعادته ألا يرضى بالكفاف.

ولعل معايير النصية قد تحققت فى الآتى:

١- ظهر التضمين بشكل ملفت بالقصيدة متفاوتًا بين القوة والضعف، متعدِّد الصور والأضرب؛ فقد جاء التضمين بالشرط، وحاجة الفعل والفاعل للمفعول، وبتعلُّق الصفة بموصوفها، والحال، والمفعول المطلق، وارتباط الفعل بسابقه لوجود فاء السببية، وحتَّى. وقد أسهمت كل هذه الأمور فى حضور معيار السَّبْك بقوة بالقصيدة كلِّها تقريبًا.

والتضمين فى هذه القصيدة تنوَّع بين تعلُّق البيت الأول بالثانى، وتعلُّق الثانى بالأول، وتعلُّق كلا البيتين بالآخر؛ وهذا يحيلنا للقسمة الرباعية التى أشار إليها

حازم القرطاجنِّى، بقوله: "أن تكون الكلمة الواقعة بالقافية غير مفتقرة إلى ما بعدها، ولا ما بعدها مفتقرٌ إليها؛ أو يكون كلاهما مفتقرًا للآخر؛ أو تكون هى مفتقرة إلى ما بعدها، ولا يكون ما بعدها مفتقرًا إليها؛ أو يكون ما بعدها مفتقرًا إليها، ولا تكون هى مفتقرةً إليه"[١]. ولكن البحث قد استعمل التضمين بمفهومه الواسع غير المقيَّد بلفظ القافية، بخلاف ما ذكره حازم.

- ومما أسهم فى إحكام الربط بين أجزاء القصيدة ابتداء أبيات عديدة بالفعل مسندًا إلى الضمير؛ ففى البيت الأول جاء بالفعل الماضى مسندًا إلى تاء المتكلم "رأيتُ"، ومثله "وفَرِيتُ" ببداية البيت الثانى، وبالبيت الثالث جاء بالفعل "يُغْرون" مسندًا إلى ضمير الواو العائد على "القوم"؛ ونلحظ أن كلمة "القوم" جاءت مفعولًا به للفعل "رأيتُ" بالبيت الأول، وتحوَّلت هنا للفاعلية؛ لأنهم صاروا فى مركز القوة.

وقد ابتدأ البيتَ الرابع بالمضارع "وأغْرى"، وهو بمثابة الرد على فعل الإغراء الواقع من هؤلاء القوم، وفى البيت السادس تحوَّل للبناء للمفعول؛ فبدأ بقوله: "يُغْرَى جَذيمةُ"، والفاعل، وإن كان مجهولًا على مستوى البناء النحوى؛ فهو معلوم على المستوى الدلالى؛ وهو "القوم". ومجىء أفعال الإغراء مضارعة أفاد استمرارية الحدث.

بالبيت الثامن يكون الشاعر قد انتقل لوصف حمار الوحش؛ فجاء بالماضى: "عنَّت له سفعاءُ"، وفيه مبالغة فى الوصف.

ثم يعود الشاعر للبنية الرئيسة لديه بالبيتين الأول والثانى، بقوله: "وخَشِيتُ"؛ فهذه البنية من الفعل المسند إلى تاء المتكلِّم، تعبِّر عن موقف الشاعر، وتصل أعضاء الجسد الشعرى. وبالبيت التالى يجىء بالفعل مسبوقًا بفاء السببية "فأكونَ"، مبرِّرًا سبب شعوره بالخشية التى هى شعور سلبى يحتاج إلى تبرير. وبالبيت الثانى عشر يؤكِّد الصورة بقوله: "وتجرُّ مُجْريةٌ..."، وفى الخامس عشر: "ينزِعْن جلدَ المرء...".

[١]- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، للقرطاجنِّى، ص٢٧٦.

ويصل إلى غايته فى الهرب بالبيت السادس عشر؛ إذ يقول: "حتَّى إذا انتصف النهارُ..."، ويتلوه: "رفَّعْتُ عينىَّ الحجازَ"، وبعدها يعود للبنية الرئيسة (الفعل المسند لتاء المتكلِّم: وذكرتُ).

بالأبيات الأربعة الأخيرة نلحظ تحوُّلًا أسلوبيًّا لدى الشاعر؛ فقد بدأ بالمصدر المضاف إلى الياء التى تعود عليه؛ بقوله: "دَلَجى"، ويُحدث الالتفات –بالبيتين الأخيرين- تحوُّلًا مؤثِّرًا بقوله: ما شئتَ من رجُلٍ، وقوله: حتى إذا فقدَ الصَّبوحَ...".

وكلُّ ذلك يؤكِّد القطيعة النسبية بين الأبيات الأربعة الأخيرة، وجسد القصيدة.

٢- انمازت القصيدة بالحبك القوى؛ فهى مترابطة دلاليًّا بشكل واضح، ومن بدايتها حديث عن واقعة بينه وبين القبيلة المعادية يصف أحداثها وصفًا متتابعًا؛ فهو فى موقف هروب والقوم يهاجمونه هو وصاحبه، ويذكر جَذيمةَ عدَّاءَ القوم الذى يشبه الحمار الوحشى السريع، ثم يذكر حالته النفسية؛ بحضور صورة المصير المؤلم بوقوعه فريسةً للوحوش والطيور الجارحة تتقاسمه، ويصفها فى سبعة أبيات متلاحقة. ثم يذكر أن الأمر ظلَّ هكذا بينه وبين القوم حتى انتصاف النهار؛ فتذكَّر أهله وفقرهم المدقع، ثم يفخر بنفسه مبيِّنًا أن ذلك لا ينفى كونه غنيًّا لا يقبل سوى الغنى.

- أسهم عنصر التضمين فى حبك القصيدة دلاليًّا؛ وبشكل خاص مع وجود علاقة السبب والنتيجة بين أبيات عديدة، وكذلك تتابع الصفات الذى يزيد الصورة تأكيدًا.

٣- يتصف معيار القصد بالحضور؛ فمن وجهة نظر الباحث يبدو أن القصيدة من بدايتها دفاع من الشاعر الصعلوك عن نفسه وموقفه؛ فهو يقصد توجيه رسالة معيَّنة؛ فهربه من الأعداء جاء بسبب تكاثرهم عليه، وبسبب خوفه من المصير المرعب بتفرُّقه بين أمعاء الجوارح والسباع والضباع كبارها وصغارها؛ وأنه فعل ذلك مؤثِرًا البقاء لأهله وصغاره البائسين الذين يطمعون فى قليل من الزاد؛ ولو مات لماتوا جوعًا. ولعل نهاية القصيدة لا تنفصل عن هذا الموقف الدفاعى؛ فهو يؤكد أن طبيعته الغنى، وأنَّه لا يرضى بما دونه.

- وقد أسهم التضمين فى توصيل ما يقصده الشاعر؛ فحين يستخدم الصفات والجمل المعطوفة لذكر حالة القوم وعدوهم نحوه، وحين يستخدم الصفات أيضًا

فى تصوير حالة الضباع والجراء وهنَّ ينهشن لحمه، وأشكالهنَّ؛ فهو يؤكِّد على مقصوده هذا.

- وقد جاءت القصيدة على مجزوء الكامل، وقد توافق المجزوء مع سرعة الأحداث وتتابعها المطَّرِد، وأسهمت البنية العروضية فى كثرة الأبيات المضمَّنة، وإحكام التعلُّق بين الأبيات، وارتباطها الشديد؛ فاحتمالية انتهاء البيت مع عدم انتهاء اللفظ أو المعنى تكون أكبر مع الأبحر القصيرة.

٤- يتحقق بهذا النص معيار المقامية؛ فللنص مقام خاصٌّ به تُحدِّده المناسبة التى قيلت فيها القصيدة، وهى مذكورة بشرح أشعار الهُذليِّين، وتدور – باختصار- حول إحدى مغامرات "الأعلم" ببلدة يقال لها "جَيِّرَة"، وقد أدركه العطش هو وصاحبٌ له؛ وكان بنو عبد بن عَدِىٍّ على ذلك الماء؛ ويبدو أن بينه وبينهم عداوة سابقة؛ فأقبل يمشى متنقِّبًا؛ فأراد القوم أن يعرفوه، وبعد أن فرغ من شربه استدلُّوا ببعض ملامح وجهه على أنه الأعلم؛ فقد كان مشقوق الشَّفة؛ فعدَوْا فى إِثْره، وأغروْا رجلًا –هو أسرعهم- اسمه "جَذِيمة"؛ فعدا وراءه، ولم يلحقه، وحدثت بين الأعلم وصاحبه، وهؤلاء القوم مناوشات، وقد أعجزهم عن إدراكه؛ فقال هذه القصيدة[١].

٥- الإعلامية: لعل من شواهد تحقُّق معيار الإعلامية ابتداء القصيدة بأداة الشرط "لمَّا"، ووجود الجواب مبثوثًا بالأبيات اللاحقة؛ فيظل المستمع والقارئ فى حضور مستمر لمعرفة الرسالة التى يريد الشاعر إبلاغها التى تحدِّدها إجابة السؤال: ماذا بعد؟

-يبقى معيارا المقبولية والتناص من العسير تحديدهما بشكل علمى؛ لغياب الأدوات؛ فالنص بالأساس موجَّه لأهل عصر ولغة يختلفون عن أهل عصرنا، وللشاعر خلفية ثقافية ضاع أكثرُها مما لم تستوعبه الروايات، ولغياب التدوين عن أهل ذاك العصر بشكلٍ كبير.

[١]- راجع: شرح أشعار الهُذَليين، ص٣١١.

أهم النتائج والتوصيات:

هذا، وقد كان هذا البحث الموجَز محاولةً للتقدُّم بالتضمين العَروضى خطوةً للأمام، بوصفه ظاهرةً لها بعد نصِّى يتجاوز حدود الجملة والبيت. ولعل أهم النتائج التى توصَّلت إليها، ما يلى:

١- أسهم التضمين فى تقوية الترابط النصِّى بين الأبيات؛ وذلك على مستويى السبك والحبك خاصةً.

٢- كشف البحث عن وجود عناصر التماسك النصِّى على المستويين النحوى والدلالى؛ باستثناء الأبيات الأربعة الأخيرة التى يرجِّح الباحث أن الشاعر لم ينشدْها فى الموقف نفسه؛ فالأبيات العشرون الأولى تشكِّل نصًّا مكتمل الأركان، بدون الأربعة التى تليها.

٣- أسهم الطابع القصصى فى ظهور التماسك النصى بشكل واضح؛ فصارت القصيدة –فى أكثر أبياتها- كأعضاء الجسد الواحد. ولم ينف الطابع القصصى حضور ذات الشاعر، ومشاركته الوجدانية؛ فقد تخلل الأبيات تعبير عن ذات الشاعر، وحديثه عن خوفه من المصير المؤلم، وشفقته على أهله البائسين، وانتهت بفخر يفيد أن الفقر عنده استثناء لا يرضاه، والغنى هو القاعدة.

وتوصى الدراسة بضرورة الإفادة من الدراسات النصية الحديثة؛ لفهم حقيقة التضمين العَروضى، وضرورة التعامل مع التضمين بوصفه قضيةً مركَّبة.

المصادر القديمة:

- البكرى "أبو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز الأندلسى": معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، ت: مصطفى السَّقَّا، عالم الكتب، بيروت، د.ت.

- الحمَوى "ياقوت": معجم البلدان، ج٥، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧.

- ابن السَّرَّاج "أبو بكر محمد بن سهل البغدادى ": الأصول فى النَّحو، ج٢، ت: عبدالحسين الفتلى، م١، ٢. مؤسسة الرسالة، ط٣، بيروت، ١٩٩٦.

- السُّكَّرى "أبو سعيد": شرح أشعار الهُذَليِّين، تحقيق: عبدالستار أحمد فراج، مراجعة: محمود محمد شاكر، دار العروبة، القاهرة، د.ت.

- السيوطى "جلال الدين": بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنُّحاة، ج١، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابى الحلبى، ط١، ١٩٦٤.

- الشَّنترينى "أبو بكر محمد بن عبدالملك": الكافى فى علم القوافى، ت: علاء محمد رأفت، دار الطلائع، القاهرة، ٢٠٠٣.
- القرطاجنِّى "أبو الحسن حازم": منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ت: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامى، د.ت.
- ابن منظور: لسان العرب، ت: عبدالله على الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١.

المراجع الحديثة:

- أحمد عفيفى: نحو النص؛ اتجاه جديد فى الدرس النحوى، زهراء الشرق، ط١، القاهرة، ٢٠٠١.
- إلهام أبو غزالة وعلى خليل حمد: مدخل إلى علم لغة النص، دار الكتاب، ط١، ١٩٩٢.
- سعيد حسن بحيرى: علم لغة النص؛ المفاهيم والاتجاهات، الشركة المصرية العالمية للنشر- لونجمان، ومكتبة لبنان، ط١، القاهرة وبيروت، ١٩٩٧.

المراجع المترجمة:

- روبرت دى بوجراند: النَّص والخطاب والإجراء، تر: تمام حسان، عالم الكتب، ط١، القاهرة، ١٩٩٨.
- كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربى، ج٥، ترجمة: عبدالحليم النجار، دار المعارف، ط٣، القاهرة، د.ت.

الأبحاث المنشورة:

- سعد مصلوح: نحو آجرومية للنص الشعرى؛ دراسة فى قصيدة جاهلية، مجلة فصول، مج١٠، ع١، ٢، القاهرة، يوليو- أغسطس، ١٩٩١.